كانت والعقل الجرماني الحديث

نقله باختصار وتصرف عبد الكريم الحمود

عن مقال بالانجليزية للاستاذ ياجت

لقد عشت عشر سنوات مع فلسفة « كانت » Kant . وظلّت في نفس الوقت بيتي وسجني ، تنفستها كتنفسي الهواء ، وإني أشكّ في أن أحداً لا يعمل عملي هذا يستطيع أن يفهم عصرنا وما فيه من رذائل وفضائل . فلنشكر عبقرية كانت التي أظهرت فيما اوحت إليه حياة الغرب المتسقة في قالب ميكانيكي ثم قوتها وراء هذه الحالة الميكانيكية التي كيفت التاريخ الاوربي منذ عصر النهضة .

على أن تكون « كانتيّاً » عاطفاً مدة طويلة هو من الافتراضات الراجحة ، فذلك يمهد السبيل إلى انقطاعك عن فلسفة كانت ، إذ لا خلاص من سيطرة كانت الفلسفية إلاّ بالخضوع لها زمناً . هذا ، وإذا أردنا أن نبني روحاً جديدة في عالم الفكر العالمي الحديث فلابدّ لنا من أن نعيش مع كانت ما دام هو الحجر الأساسي في بناء الفكر العالمي الحديث وما دامت الفلسفات الحديثة تأخذه بعين الاعتبار عند ما تبحث مشكلاتها الأساسية .

منذ أكثر من قرن ظهرت فلسفة كانت في مكان معين من التاريخ الأوربي ، وذلك حين تنفس عهد « الركوكو » النفس الأخير وانفجر العصر الرومانتيكي . هذه الساعة البهيجة الجليلة يمكنني أن ألقبها بكل شجاعة : الذروة العليا في التاريخ الاوربي .

لا يسأل كانت ما هي الحقيقة وما هي الأشياء وما هذا العمل ؟ بل يسأل عن إمكان معرفة الأشياء والعمل . لقد ضرب كانت بالأشياء عرض الحائط وانطوى على نفسه . هذا الانطواء العميق الذي لم يكن جديداً في عصر كانت ، بل كان من خصائص عصر النهضة على العموم . وما كانت في الواقع إلاّ الفيلسوف الذي ألبس هذا الاهمال للاشياء صورته النهائية . وهكذا نرى كانت يهمل المشكلة « الميتافيزيقية » للوجود وينصرف بجهده إلى مشكلة المعرفة . فهو لم يهتم بكونه يعرف ، ولكنه اهتمّ بكونه : هل يعرف . وبكلمة أخرى ، انصرف كانت إلى إمكان المعرفة .

***

وإذا نظرنا إلى الفلسفة المعاصرة نراها تجعل من الفلسفة ابتداءً من « كانت » علماً

للمعرفة ، فهي تصرّح بأنهُ قبل أن نعرف أي شيء ، علينا أن نتثبت أولاً من إمكان المعرفة ، وهذا الأسلوب الجديد في الفلسفة لم يقتصر على إدخال الشك في عقل الرجل العصري حسب ، بل منذ ديكارت Descartes لم نأل جهداً في اعتبار الأمر الطبيعي والمعقول لدى الفلسفة أن نبدأ في توضيح طريق المعرفة المؤدية إلى الحقيقة .

ومثالك زمان لم يكن فيه شعور الفيلسوف مماثلاً لشعور فيلسوفنا الحديث، ففلسفة اليونان وفلسفة القرون الوسطى لم تكن علماً للمعرفة بل علماً للوجود . ولئن علم المعرفة كان بالنسبة إليهم أمراً ثانويّاً ، ولهذا نرى أن هذه النزعة في الروح المعاصرة التي تحفزنا إلى السؤال عن إمكان وجود حقيقة وعن طريق معرفتها غريبة عن عقلية اليونان والقرون الوسطى .

إن أفلاطون والقديس أغسطينس قريبان من الروح المعاصرة ولكنهما لا يشكان أبداً في إمكان معرفة الحقيقة .والواقع أن أفلاطون اطمأن بقوة العقل كل الاطمئنان حتى إنه تعجب كثيراً من جواز وقوع الخطأ .

وهنا لابد أن معترضاً يقول بأن أفلاطون قد كرَّر كثيراً اثارة مشكلة المعرفة مستعملاً نفس الألفاظ التي استعملها الفلاسفة المحدثون . ولكن هذه الاثارة والتكرار فيها شيء ظاهري لا يفيد إلاّ البعد بين تفكيره وتفكيرنا الحديث . فديكارت وهيوم Hume وكانت يسألون : هل لدينا معرفة صحيحة بشيء ما ، ولكن أفلاطون لا يشك ولو لحظة واحدة في قدرتنا على معرفة أشياء كثيرة ، وهو وإن أنكر معرفة الأشياء الجزئية لم يشك مطلقاً في معرفة الكليات أو الفكر كالعدالة والحب ، وبكلمة أخرى : يثير أفلاطون مشكلة المعرفة لا لأنهُ يعتقد مقدماً أن العقل البشري قاصر عن المعرفة ولكن ليتثبت هل هناك موضوعات للمعرفة اليقينية .

***

هذه الملاحظات مع ما فيها من التشابه الظاهري هي في الواقع الحد الفاصل بين الروح اليونانية والقرون الوسطى من جهة ، والروح الحديثة من جهة أخرى . وهذا الفاصل قد خلق بدوره نظريتين مختلفتين للحياة . يبدأ القدماء من الشعور بالثقة في هذا العالم ونظامه ولكن الرجل العصري يبدأ بعدم الثقة في هذا العالم ، ويعبر كانت عن هذا بقوله « إن العالم في تشويش وسوء انتظام». على أنهُ لمن الخطأ أن نذكر كسابق لهذه النزعة العصرية نزعة المشككين عند اليونان ، ونحن وإن كنّا لا ننكر أن التفكير الحديث قد تعلّم من اليونان

المفكرين كثيراً واستعمل أسلحتهم مراراً لنرى أن هناك فرقاً أساسيًّا بين عصر الشك الكلاسيكي وعصر الفلسفة النقدية الحديثة. فالمفكرون عند اليونان لم يبتدئوا بالشك بل توصلوا إليه، على حين الفكر الحديث يبتدئ بالشك.

ليس الشك بالأمر المهم كما يقول «كانت» وذلك لأن أول شاك كبير عصري، وهو ديكارت، قد توصل إلى حقيقة ذاتية بعد أن تساءل عن فكرة القدماء عن الحقيقة، ولهذا فكل الجدل حول الشك في العصر اليوناني أصبح لا يجدي شيئاً بعد أن توصلنا إلى حقيقة ذاتية، ولكن ذلك لا يمنعنا القول بأن روح الشك في العصر اليوناني قريبة إلى حدّ ما من روح العصر الحاضر. ولهذا السبب نجد روح عصر الشك عند اليونان يقف موقفاً مضاداً للروح العامة، حتى إن اليونان لخوفهم من هذه الفئة لقبوها بالوساوسة.

وليس أدل على معنى هذا الخوف الذي يعتري اليونان من هذه الفئة من كلمة «الشك». فكلمة الشك عند اليونان معناها «الازدواج» ولكن اليونان يكرهون هذا الازدواج ويميلون إلى الوحدة.

إن الشك الذي كان من البطولة الوصولُ إليه أصبح ظاهرة طبيعية لدى الروح الحديثة «فكانت» الذي يمثل هذه الظاهرة بأجمعها لم يكتف باتخاذ الحذر طريقة فلسفية، بل جعل من الفلسفة علماً له. ولهذا فإن الفلسفة النقدية الحديثة ليست إلاّ العلم الذي لا يهتم بأن يعرف بل يهتم بأن يتجنب الخطأ. فالفلسفة القديمة — فلسفة اليونان والقرون الوسطى — هي ثمرة الثقة والشعور بالاطمئنان، ولهذا نرى أن مجتمعها يتجسد في الفارس المغامر في حروبه، بعكس الفلسفة الحديثة التي أنتجها عدم الثقة والحذر والتي هي من خلق رجل الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي. إن رجل الطبقة الوسطى هذا قد تغلب على المغامر وعلى الروح الحربية القديمة وجعل من نفسه نموذجاً لمجتمعه. ولكنهُ بفقدان هذه الروح المحاربة وبسبب حذره اضطرّ إلى السعي وراء الطمأنينة بالتشريع والاقتصاد وسيلةً لتجنب ما يحذره ويخافه.

وليست فلسفة كانت النقدية إلاّ صورة لروح الطبقة الوسطى التي تحكمت في مصير أوربة منذ عصر النهضة، والتي سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور الرأسمالية. ولهذا نرى أن تشبع كانت بالفلسفة الانكليزية التي كانت تمثل الصورة المثلى لتطور الفلسفة النقدية والرأسمالية في إنكلترة ليس من قبيل المصادفة. على أن ذلك لا يعني أن هذه الملاحظات التي أبديتها تفيد الاعتقاد «بمذهب المادية التاريخية». أنا لا أقول إن الفلسفة النقدية هي

من نتاج النظام الرأسمالي الحديث ولكني أقول إن الفلسفة النقدية والرأسمالية هما من خلق هذا الإنسان الذي يحركه الحذر والشك . إن أية قيمة تقيمها لأي عمل ثقافي يجب أن تسبق بفحص الظاهرة « البيولوجية » أعني نوع الشخص الذي أنتج العمل .

***

على أن هذه الملاحظات على ما فيها من التعدد لها قيمتها في معرفتنا لأنفسنا . فلأي نوع ينتمي رجلنا المعاصر ، هل هو متمم لحذر رجل الطبقة الوسطى ؟ الجواب عن ذلك يتطلب تحليل الفلسفة المعاصرة ، وهو عمل يعجزنا ما دامت الفلسفة المعاصرة لا تزال في طور النمو ولم تكتمل بعد . إلا أن هناك ملاحظة في وسعنا الإشارة إليها دون أن نتحمل خطر التبعة ، أعني أن الفلسفة المعاصرة تعتقد أن الفلك ليس بالطريق الصالح وأن الرجل الحذر في تفكيره في استطاعته التخلص من ذكائه او براعته . إن الانسان لا يستطيع أن يتوصل إلى طريق المعرفة قبل معرفة الحقيقة ، لأن المعرفة تتضمن معرفة طريق الحقيقة ، وبعبارة أخرى : إن الثقة أصلح من الحذر أو الفلك .

ليس الحذر وحده الذي يميز فلسفة كانت . فديكارت وهيوم كانا حذرين ، ومع ذلك تختلف فلسفتهما كل الاختلاف عن فلسفة « كانت » ، وإن هذا الاختلاف ناتج من الطريقة التي بها هدأوا حذرهم وشكهم والاعتقادات التي نتجت عن هذه التهدئة ، لهذا نرى الروح الجرمانية وروح حوض البحر المتوسط تختلفان أكثر مما نعتقد ، لأن هاتين الروحين تبتدئان من تجارب متناقضة كل التناقض . فساعة تفيق الروح الجرمانية لا ترى في هذا العالم إلا نفسها : الفرد منطو على نفسه وليس له أي علاقة بفرد آخر . وإن روح الفرد الجرماني لا تشعر إلا بنفسها ، وإن شعرت بالمجتمع الذي حولها فلا تشعر به إلا كنظام أعمى أو كوحش يلتهم شاطىء جزيرتها .

على أن فرد حوض البحر المتوسط يفيق وهو في سوق البيع ، وهو منذ الولادة رجل الساعات . وأول مؤثر فيه هو الحياة الاجتماعية ، فتجاربه في « أنت » هي « الشعب ، الأشجار ، النجوم » تسبق معرفته لنفسه . إن الشعور بالوحدة أجنبي عنه ، وإذا أراده وجب عليه أن يخلقه ويحاربه من أجله ، وإن حصل عليه فلا يكون ذلك إلا من قبيل الصناعة والتمثيل . إن روح حوض البحر المتوسط في بنائها فلسفتها تعتمد على العالم الخارجي وتعتبر الأشياء الحجية صورة الحقيقة ، ولهذا هي زاهدة في قيمة وجودها بالنسبة إلى المرآة التي تنزل بها الأشياء والناس . إن هذه الروح لا تعي إلا سطحية « الأنانة »[1] حيث الأشياء تترك

(١) فرنك : آنا (المترجم)

طابعها ، وذلك يعكس الروح الجرمانية التي تستدبر العالم الخارجي وتنطوي على وليجة نفسها . فالجرماني لا يرى العالم مباشرة بل يراه من طريق تفكيره وإحساسه ، وبهذا يصبح عالمه عالم فكرة أو صورة وما مثله إلا كمثل رجل يريد أن يرى الطبيعة فيذهب إلى شجرة ويراها منعكسة في شماعات سائلية .

إن حقيقة وعي الأنانة صورة لرجل حوض البحر المتوسط، وليس الشعور بها عند الجرماني إلا مرضاً في العقل . فالوعي لا يكون موجوداً إلا إذا كان وعياً بشيء . ولهذا نرى في النظام الطبيعي أسبقية العالم الخارجي على الوعي . إن وعيك كموضوع لوعيك شيء ثانوي ويتطلب العالم الخارجي، وهذا عكس ما يفكر فيه الجرمان . فالأشياء الحسية عند الجرمان أمر ثانوي بالإضافة الى الوعي الداخلي . وهنا يمثل كانت أوج الذاتية في الروح الجرمانية التي تقود الفرد إلى الاعتقاد بأن « الأنانة » هي الحقيقة الأولى في هذا الوجود . وهكذا فإن كل محاولة من جانب الجرمان في الوصول إلى ما بعد الذات خاسرة ، ولا يكون الاتصال مباشراً بل صناعيًّا مكوناً قبليًّا في الذهن apriori .

أما رجل الجنوب فشاعر منذ البداية بالعالم الخارجي ومقضي عليه بالعيش في جلبة أسواق العالم ، وليس له من سبيل إلى الانفراد بنفسه . فمشكلته تنحصر في كيفية الغوص في نفسه وتفهّم حقيقة الأنانه . وإن وصل إلى حقيقة نفسه فما يكون ذلك إلا بعد أن يختبر الأشياء في « أنت » ثم يرجع بها إلى « أنا » . لهذا فهو أميل إلى تفسير « أنا » من الخارج على الصورة التي اختبر بها الناس والأشياء . وليس ذلك بالغريب لأن فلسفة البحر المتوسط تركب الأنانة على الصورة التي تركب بها الجسم ؛ وذلك باستثناء فلسفة القديس أغسطينس التي تعرف الأنانة على الصورة التي يعرفها فلاسفة العصر الحديث .

على أن هذا الاختلاف بين تلك الروحين أدى إلى صراع عنيف بين رهبان الشمال ورهبان الجنوب في أوربة . فهوجو وسكوتس وأوكام من أهل الشمال شغلوا أنفسهم بالحياة الداخلية على حين أن القديس توما الاكويني – الايطالي الصميم – أحيا فكرة الجسم الروحي الارسططالية التي يتكوّن نصفها من المادة والتي ليست لها سلطة على التفكير فحسب بل على عمر الجسم أيضاً . ومن هنا نرى أن التفكير لم يكن ليفهم من الداخل كما هو عند الجرمان ، بل اعتبر حقيقة داخلة في نظام حركات الأجسام .

« شرق الاردن »